

دراسات الأدب المعاصر، السنة السابعة، خريف ١٣٩٤، العدد السابع والعشرون: صص ١٠٧ - ١٢١

مصطفى لطفى منفلوطى؛ نبذة من حياته وأدبه

فتانه منصورى جمشىدى*

تاريخ الوصول: ٩٤ / ١ / ١٧

تاريخ القبول: ٩٤ / ٥ / ٥

الملخص

هو مصطفى لطفى بن محمد لطفى بن محمد حسن لطفى المنفلوطى وهو من الأدباء الذين كان لطريقتهم الإنشائية أثر فى الجيل الماضى. وُلِدَ فى منفلوط، من صعيد مصر وتلقى علومه فى الأزهر، وكان يميل إلى مطالعة الكتب الأدبية كثيراً، ولزم الشيخ محمد عبده فأفاد منه. فانفرد بأسلوب نقى فى رواياته وكتبه، كما تميز شعره بركة وعضوبة، قام بترجمة العديد من الأعمال الأدبية والإقتباس من بعض روايات الأدب الفرنسى الشهيرة بأسلوب أدبى مميز، كما تميز بصياغة عربية فى غاية الجمال والروعة. لم يحظى بإجادة اللغة الفرنسية لذلك استعان بأصحابه الذين كانوا يترجمون له الروايات ومن ثم يقوم هو بصيغتها وصلها فى قالب أدبى فذ. كتاباه النظرات والعبرات يعتبران من أبلغ ما كتب بالعربية فى العصر الحديث.

الكلمات الدلالية: المنفلوطى، الدراسة الفنية، الكاتب الاجتماعى، النزعة الإنسانية، المواقف الاجتماعية.

المقدمة

يعتبر مصطفى لطفى منفلوطى من أحد الكتاب الحاذقين فى الحياة الأدبية والفكرية والثقافية فى تاريخ الادب العربى الحديث، وهو العلم البارز فى الطريقة النثرية، لأن اذا كان المنفلوطى قد بدأ حياته الأدبية شاعراً؛ فهو لم يحتل مكانه فى الأدب العربى الحديث بغير الكتابة النثرية التى اصطنع فيها اسلوباً فريداً يحمل طابعه ووسمه و ينحو فيه منحى جمالياً يعتمد على الترسل والبعد عن التكلف وجمال الإيقاع الموسيقى. وقد أسهم المنفلوطى فى تخليص النثر العربى الحديث من أغلال السجع الذى كان غالباً عليه، ونأى به عن التكلف البديعى، ولا شك أن استاذة الإمام محمد عبده كان رائده فى هذا الإتجاه منذ وكل إليه تحرير الوقائع المصرية فى عام ١٨٨٠م (فقد خرج بها من أسلوب السجع والفواصل وأنواع الجناس والبديع إلى اسلوب مرسل حر لا يضيق بالمعانى ولا يضيق به القراء).

لقد أفاد المنفلوطى من تراث العرب النثرى وتلمذ على أيدى فرسانه ممن كان مشغولاً بهم كابن المقفع والجاحظ، ولكنه فى الوقت ذاته جعل لكتابته سمة معاصرة لا يخطئها الذوق المعاصر، على الرغم من عدم معرفته بلغة أجنبية، وقد اجتذبه التيار الرومانسى فيها لموافقته لميوله الطبيعية من حيث الانتصار للفضيلة والعدالة وحقوق المستضعفين فى الأرض والاسترسال العاطفى (هدارة، ١٩٩٤: ٤٠٣).

خلفية البحث

مصطفى لطفى المنفلوطى نفسه وأدبه على الإطلاق عُنى به عناية واسعة فى الكتب الأدبية المختلفة عند النقاد المعاصرين، كما جاء فى قائمة المصادر وتوجد مقالات ودراسات عدة فى الجامعات حول هذا الكاتب المشهور وما خلقه من آثاره الأدبية مثلاً أطروحة جامعية تحت عنوان «ترجمه ونقد العبرات» من تأليف ليلا اسماعيلي، «بدبيني و بازتاب آن در آثار مصطفى لطفى المنفلوطى» لمظفر اكبرى مفاخر، «التعرف على مصطفى لطفى المنفلوطى فى ذكرى وفاته» لريهام عبد الوهاب، «مصطفى لطفى المنفلوطى، الأديب الاشتراكي» من إعداد محمد شلبى وأخيراً «ترجمة الحياة وتحقيق أدبى فى قسم من آثار مصطفى لطفى المنفلوطى» لإبراهيم ميرباقرى. كل هذه الدراسات

المرتبطة استعنى في التعرف على الجانب الفكري لهذا الكاتب، ولكن الجديد في هذا المقال، البحث العميق عن حياته الشخصية وعن أدب هذا الكاتب الشهير، الأدب الذي متأثر من رؤيته الفكرية والإجتماعية والسياسية في تلك الفترة.

حياته

هو الأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطي، ولد في قرية منفلوط إحدى القرى التابعة لمحافظة أسيوط، ولد في عام ١٨٧٦م (عويضة، ١٤١٣: ١١). لأب عربي يتصل نسبه بالحسين ولأم تركية. واضح أن شهرته بالمنفلوطي ترجع إلى صلته بوطنه الصغير وأما لقبه بالسيد فيرجع إلى أن ذلك شائع لدى من يتوارثون الصلة بعتره الحسين ويتولون نقابة الاشراف. كانت نقابه الاشراف و مرتبه القضاء يتوارثها بيت أبيه، منذ مائتى سنة. والمنفلوطي من أسرة حسيبة النسب والشرف تولته بالرعاية والاهتمام منذ صغره فحفظ القرآن الكريم وهو لم يتجاوز سن الحادية عشر، ثم أرسله والده إلى الأزهر الشريف ليتم تعليمه بين أروقتة وتحت أعمدته، فظل به عشر سنوات يدرس ويحصل ويختلف على معظم مدرسيه وعلمائه وفقهائه الكبار (أبو الأنوار، ١٩٨١: ٢٧).

وفي الأزهر وجد المنفلوطي ضالته المنشودة في الشيخ محمد عبده الذى أعجب به شديد الإعجاب حتى لزمه فى كل دروسه، فما لبث أن انصرف عن الأزهر بكل علومه ورجاله وأخذ يتردد بشكل مستمر على الشيخ محمد عبده فقط. ومنذ تلك اللحظة بدأت ميول المنفلوطي للأدب والبيان واللغة أكثر وضوحا من التعمق فى العلوم الشرعية والدينية، وهذا ما جعله يتفرغ لقراءة مؤلفات ابن المقفع، والجاحظ، وبديع الزمان الهمذاني، والامدى، والباقلاني، وابن الرومى، وعبدالقادر الجرجاني، وأبى العلاء المعرى، وبالطبع كتب محمد عبده وخاصة كتاب «دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة» ولشدة ولعه وشغفه بالإمام محمد عبده. يقول الدكتور شوقى ضيف أن المنفلوطي أسف أسفا شديدا لوفاة حتى رجع إلى قريته مرة أخرى ليظل بها قرابة العامين يكتتب منها صحيفة المؤيد، بعد ذلك عاد ثانية إلى القاهرة (نفس المصدر: ٣٠-٢٨).

قد كان المنفلوطي قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه؛ فهو مؤلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، منسجم الزى. كان صحيح الفهم وسليم الفكر، دقيق

الحسن (الزيات، ١٩٨٥: ٣٤١). هذه انحلال تظهر صاحبها للناس في مظهر العيبى الجاهل فهو لذلك كان يتقى المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة. مرجع ذلك فيه الى احتشام التربية التقليدية فى الأسرة ونظام التعليم الصامت فى الأزهر وفرط الشعور المرهف بكرامة النفس (رضايى، ١٣٨٤: ١٣).

فهو الانسانى النزعة إلى حد بعيد وقد وضحت لنا فى بعض المواقف، نزعتة الانسانية العامة حيث يأسى من أجل شقاء المجتمعات بالحرب ويدعو للسلام ويعتز بالصلة الإنسانية بين بنى البشر جميعاً. فنزعة الأخلاقية المثالية التى تتمثل فى حرصه الدائم التبصير بالحق والخير والفضيلة فى مقالاته وقصصه على السواء. فكل الموضوعات التى تستبد بوجدانه والتى تصدى للدفاع عنها. تجعل القارى لها فضلاً عن الدارس، يرى الرجل وقد اجتمعت لشخصية أرقى العواطف المعنوية فى الانسان وهى محبة الحق والجمال (عبدالقادر، ١٩٤٩: ٥٤).

أصيب المنفلوطى بشللٍ بسيطٍ قبل وفاته بشهرين، فثقل لسانه منه عدة أيام، فأخفى نبأه عن أصدقائه، ولم يجاهر بألمه، ولم يدع طبيباً لعيادته، لأنه كان لا يثق بالأطباء، ورأيه فيهم أنهم جميعاً لا يصيبون نوع المرض ولا يتقنون وصف الدواء؛ ولعل ذلك كان السبب فى عدم إسعاف التسمم البولى الذى أصيب به قبل استفحاله.

وفى ليلة الجمعة السابقة لوفاته، كان يأنس فى منزله إلى إخوانه ويسامرهم ويسامرونه، وكان يقد إليه بعض أخصائه وأصدقائه من الأدباء والموسيقيين والسياسيين، حتى إذا قضى سهرته معهم انصرفوا إلى بيوتهم ومخادعهم، وانصرف هو إلى مكتبه، فبدأ عمله الأدبى فى نحو الساعة الواحدة بعد نصف الليل، لكنه ما كاد يمكث طويلاً حتى أحسّ بتعب أعصابه، وشعر بضيق فى تنفسه، فأوى إلى فراشه ونام، ولكن ضيق التنفس أرقه. كُتب عليه أن يُختم بالتأوه والأنين، كما عاش متأوهاً من مآسى الحياة، ساجعاً بالأنين والزفرات، وأدار وجهه إلى الحائط وكان صباح عيد الأضحى قد أشرقت شمسها ودبت اليقظة فى الأحياء، فدب الموت فى جسمه فى سكونٍ وارتفعت روحه مطمئنةً إلى السماء. توفى المنفلوطى يوم الخميس، الثانى عشر من يونيه سنة ١٩٢٤م، عن عمر يناهز الثانية والخمسين عاماً تقريباً، وكانت وفاته فى اليوم الذى جرت فيه محاولة اغتيال

سعد زغلول الذى نجا من تلك المحاولة، ولكنه أصيب إصابة بالغة؛ فانشغل الناس بتلك الحادثة ولم يلتفتوا كثيراً لوفاة *المنفلوطى* (أبو الأنوار، ١٩٨١: ٦٧).

ولقد رثاه *حافظ إبراهيم* وأحمد شوقى فى ماتم أقيم فى وقت لاحق، قال شوقى:

اخترت يوم الهول يوم وداع
ونعاك فى عصف الرياح الناعى
هتف النعاة ضحى فأؤصد دونهم
جرح الرئيس منافذ الأسماع
من مات فى فزع القيامة لم يجد
قدماً تشيع أو حفاوة ساعى

(شوقى، ١٩٨٨م، ج ٢: ٩٤)

حياته الادبية

بدأ *المنفلوطى* حياته شاعراً لا يعرفه أحد، وأنهاها إماماً للنثر؛ بل صار أمير البيان؛ كما خلع عليه محمد أبو الأنوار هذا اللقب فى دراسته التى حملت هذا العنوان (أبو الأنوار، ١٩٨١: ١٢٦). عاش *المنفلوطى* حياة بائسة شديدة الفقر والحاجة، فكان يشقى فى سبيل الحصول على حد الكفاف، ورغم الوضع الاقتصادى الصعب *للمنفلوطى* إلا أنه كان صاحب رأى وموقف، فمن المعروف عنه أنه ناصر شيخه محمد عبده ضد *الخديوى عباس*، ظهر ذلك جلياً عندما عاد *الخديوى عباس* من زيارة له لإحدى الدول الأجنبية فنظم له *المنفلوطى* بعض الأبيات غير المرحبة بعودته للبلاد، ثم نشر هذه القصيدة بدون توقيع، إلا أنه سرعان ما تم التعرف عليه وتم سجنه وهو لا يزال طالبا بالأزهر.

وبذلك تضافرت الأحوال البائسة مع السجن لتحول *المنفلوطى* لأشهر طائر حزين يطير فى سماء الشرق. لهذا اهتم *المنفلوطى* بأن يجد وظيفة مناسبة، فتولى الأعمال الكتابية فى وزارة المعارف عام ١٩٠٩ م، وكان ذلك أثناء تولى سعد باشا زغلول الوزارة الذى كان شديد الإعجاب به.

وعندما انتقل سعد زغلول لتولية وزارة الحقانية عام ١٩١٠ م نقله معه إلى الوزارة الجديدة، لكنه فصل بعد خروج سعد زغلول من الوزارة. فعمل فى سكرتارية الجمعية

التشريعية عام ١٩١٣ م. وعندما قام البرلمان في عام ١٩٢٣ م عينه سعد زغلول موظفاً به وظل بهذه الوظيفة حتى وافاه الأجل (عويضه، ١٤١٣: ٣٣-٢٩).

أسلوب كتابته

أحدث المنفلوطى فى الجيل الجديد - وقتها - ثورة فى عالم الكتابة، تُخالف ما قبله، وتبشر بما بعده، فهو تخلّص من ركافة الأسلوب الغارق فى أحوال التراكيب التركيبية الركيكة؛ فانفتح على أدب البوح، والإقتباس، وحكايات الغرب، وقصصه العجيبة؛ وعجن ذلك كله فى وعائه اللغوى الخاص الذى كان فاتحة القرن العشرين فى فن الإنشاء، والكتابة.

كان أسلوب المنفلوطى حديثاً بالنسبة لمن سبق بوجه عام إذا ابتعد عن الإنشاء اللفظى والزخرف البيانى على غير مضمون الذى يقرأ مؤلفات المنفلوطى يرى فى أسلوبه وضوح ورشاقة وسهولة. لعل أول ما يلفت النظر فى أسلوبه هو ميله إلى التصوير الفنى ونعنى بذلك اعتماده الكلام المجازى فى تبيان ما يروم تبيانه (المقدسى، ١٩٨٤: ٢٩٨-٢٩٤).

فلما حدث التجدد الذى اقتضيته النهضة صارت الكتابة تميل إلى البساطة وإرسال الكلام على طبيعته؛ على أن هذا الميل لم يمنع كتابنا من استخدام التصوير الفنى بطريقة يتحاشون فيها تصنع عهد الإنحطاط أو ما سبقه، ويجعلون به كتابتهم أشد تأثيراً فى نفوس القراء وعلى هذه الطريقة جرى المنفلوطى فى أكثر ما كتب. فتصويره على العموم لطيف مشرق لا تقعر يستثقل فيه ولا زخرفة تستهجن ويمجها الذوق. وهو إلى ذلك يميل إلى الإطناب والتفصيل.

طريقة المنفلوطى لها سمات أسلوبية واضحة أهمها البعد عن التكلف والنأى عن التقليد والقصد إلى الصدق والإهتمام بحسن الصياغة وجمال الإيقاع ورعاية الجانب العاطفى، ثم الميل إلى السهولة والترسل وترك التعقيد والمحسنات فيما عدا بعض السجع المطبوع الذى يأتى بين الحين والآخر للإسهام فى موسيقى الصياغة (هيكل، ١٩٦٨: ١٦٦). وهو فى ذلك يميل إلى الأطناب والتفصيل فكأنه من هذا القبيل أشبه بابن الرومى فى الشعر يأخذ المعنى كما قال ابن خلكان: «فلا يزال يعالجه حتى لا يبقى

فيه بقية» أى أنه ينزع إلى الوصف المستفيض وإلى تقصى الدقائق فى شرح المعنى المطلوب فلا عجب أن ترى *المنفلوطى* يندفع إلى تكرير المعطوفات والمترادفات والنوعوت كقوله من مقال عنوانه «الحياة الذاتية»: «أية قيمة لحياة أمرىء لا عمل له فيها إلا معالجة نفسه على الرضا بما يرضى به الناس؛ فيأكل ما لا يشتهي ويصدف نفسه عما تشتهى ويسهر حيث لا يستعذب طعم السهر، وينام حيث لا يطيب له المنام، ويلبس من اللباس ما يحرج صدره ويقصم ظهره ويشرب من الشارب ما يحرق أمعاءه ويأكل أحشاءه، ويضحك لما يبكى ويبكى لما يضحك ويتسم لعدوه، ويقطب فى وجه صديقه وينفق فى دراسة علم السلوك (أى المداهنة والملق) زمناً لو أنفق عشر معشاره فى دراسة علم من العلوم النافعة لكان نابغته المبرز فيه حرصاً على إرضاء الناس وازدلافاً على قلوبهم»، ومع هذا لم تكن طريقة *المنفلوطى* هى المثل الأعلى لكتابة المقالة فقد عيب عليها الاهتمام البالغ بالأسلوب وفقر الجانب الفكرى والمبالغة فى اصطناع الأسى وإثارة العاطفة ثم عدم الدقة (المقدسى، ١٩٩٠: ١٩٩-١٩٨).

فى الاستعمال اللغوى أحياناً والميل إلى حشد الألفاظ المترادفة والعبارات المكملة والكلمات المؤكدة دون حاجة إلى ذلك يقتضيها الموقف أو تحتاجها الفكرة. *المنفلوطى* مزج بين روعة الحكى الفرنسى وحرارته، وبين الأداء اللغوى المتين؛ فتخلى عما لا يخدم فكرته، وأضاف ما لا يتعارض مع الواقع، والأعراف. كان لا يعرف اللغة الفرنسية؛ فاتفق مع أحد أصدقائه العارفين بها؛ فكان يقص عليه أحداث الروايات التى تروقه؛ ثم يقوم هو بتمصيرها، وإلباسها اللباس العربى الشرقى، وهو ما نجح فيه؛ على عكس *حافظ إبراهيم* فى تعريبه لرواية «البؤساء» / فيكتور هوغو؛ فأسلوبه أقل طلاوة ورشاقة من صاحبه. ومن آيات *المنفلوطى* الشهادات على فطنته؛ كما يقول *الطاهر أحمد* مكى فى كتابه الموسوعى «الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه»، أنه «رأى أن ذوق الجمهور فى مطلع القرن الماضى يختلف عما قبله؛ فانساق وراءه مترجماً ومقتبساً ومجدّداً». فاستجاب دواعى التطوير الاجتماعية والثقافية، وظروف العصر الملحّة (مكى، ١٩٨٧: ١٦٨). وصفه *أحمد حسن الزيات* فى كتابه «تاريخ الأدب العربى»، فقال: «إنه كان مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب» (الزيات، ١٩٨٥: ٣٤١).

مؤلفاته

للمنفلوطن أعمال أدبية كثيرة اختلف فيها الرأي وتدابير حولها القول، وقد بدأت أعمال المنفلوطى تتبدى للناس من خلال ما كان ينشره فى بعض المجلات الإقليمية؛ «كالفلاح، والهلال، والجامعة، والعمدة» وغيرها، ثم انتقل إل أكبر الصحف آنذاك وهى «المؤيد» (أبو الأنوار، ٢٠٠٠: ٦٠).

كتب المنفلوطى الكتب التالية: «النظرات، فى سبيل التّاج، ماجدولين أو تحت ظلال الزيفون، بول وفرجينى أو الفضيلة، الشاعر أو سيرانودى برجراك، العبرات، مختارات المنفلوطى» وهى مختارات شعرية ونثرية انتقاها المنفلوطى من أدب الأدباء العرب فى مختلف العصور.

كانت حياة المنفلوطى مليئة بالإنجازات الأدبية، فعندما يذكر المنفلوطى يذكر معه كتابيه الأشهر «النظرات» و«العبرات» ولكن هذين العملين مثل جميع أعماله التى قام بتعريبها بعد ترجمتها، فالمنفلوطى لم يكتب كتاباً خالصاً فى حياته إلا كتاب واحد وهو الكتاب الأقل شهرة وهو تحت عنوان «القضية المصرية من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٣» والكتاب واضح من اسمه أنه سياسى ولا صلة له بالأدب ولا البيان لا من قريب أو من بعيد.

أما عن أعماله التى رفعته إلى ذروة الشهرة فجاءت عبر تكليفه لبعض الأصدقاء بأن يقوموا بترجمة بعض الأعمال، ثم يقوم هو باعادة كتابتها وكأنه يؤلفها من جديد ويمزجها بالواقع المصرى والعربى مزجاً مؤثراً. واختار المنفلوطى وأصحابه الأعمال الرومانسية المعنية بالعدالة والفضيلة والانتصار للفقراء ومن هذه الأعمال: «قصة بول وفرجينى» لبرناردين دى سان بير وسماها «الفضيلة»، ورواية «ماجدولين» أو «تحت ظلال الزيفون» لألفونس كار، وأيضاً رواية «الشاعر» لأدموند روستان، وكذلك رواية «فى سبيل التاج» لفرانسوا كوبيه.

وقد جمع المنفلوطى هذه الأعمال فى عمله الكبير «العبرات» وهو العمل الذى حقق نجاحاً كبيراً له، وجعل للمنفلوطى مكانة متقدمة فى الحياة الأدبية المصرية والعربية. وللمنفلوطن أيضاً كتاب يسمى «مختارات المنفلوطى» وهو عبارة عن مختارات لمن قرأ لهم من كبار الشعراء أمثال أبى تمام، وابن الرومى، وأبى العلاء (أبو الأنوار، ٢٠٠٠: ٧٠-٦٠).

وبجانب «العبرات» فإن كتابه «النظرات» يقع فى نفس مكانة كتابه الأول، و«النظرات» يشتمل على ثلاثة مجلدات وهى مجموعة كبيرة من المقالات الاجتماعية نشرها المنفلوطى فى صحيفة «المؤيد» التى كان يحررها الشيخ على يوسف. وفى «النظرات» يتحدث المنفلوطى عن مشاكل وتحديات المجتمع المصرى آنذاك، ويقول الدكتور شوقى ضيف فى هذا الإطار: «تتميز هذه المقالات بميزتين أساسيتين، الأولى تتناول الشكل والثانية تتعلق بالموضوع، أما عن الشكل فإنها كتبت بأسلوب نقى خالص ليس فيه شئ من العامية ولا من أساليب السجع الا ما يأتى عفواً»، أما من حيث الموضوع فقد اختار المنفلوطى الحياة الاجتماعية لبيئته واتخذها ينبوعاً لأفكاره. والمنفلوطى لم يرق فقط بتقليد كاتب قديم بعينه مثل ابن المقفع أو الجاحظ أو بديع الزمان بل حاول أن يكون له أسلوبه الخاص به، وهو ما يسمى بشخصية الكاتب، بمعنى أن كل ما يكتبه يطبع بطابعه ومن ثم يخرج إلى الوجود وكأنه عمل جديد يرى النور للمرة الأولى (ضيف، لا تا: ٢٣١).

وقد اتجه مصطفى لطفى المنفلوطى فى أعماله القصصية وجهة خاصة، لا يستوحى فيها المقامات ولا غيرها من قوالب التراث، ولا يحاكي القصة الغربى كما سيفعل آخرون فيما بعد، وإنما يقدم نوعاً من القصة، فيه بعض عناصر قصصية، ولكنها غير مكتملة من الناحية الفنية الخالصة، لأن إلى جانبها عناصر أخرى أقرب إلى فن المقال أو فن الخطابة. ومن هذا المزيج القصصى المقالى الخطابى، اتخذ المنفلوطى طريقته القصصية، هادفاً إلى غاية تهييبية، وهى تعميق الإحساس بالمثل العليا والقيم الإنسانية الكبرى، كالوفاء، والشرف، والشجاعة، والفضيلة، وحب الخير والحق والجمال، مستخدماً للتعبير عن طريقته والوصول إلى غايته، أسلوباً بيانياً أخذاً، يقوم على تجويد التعبير، ورعاية موسيقى الكلام، والإهتمام برسم الصور، وإثارة العاطفة. كل ذلك من غير إلتزام للسجع ولا لغيره من المحسنات، ومن غير محاكاة للمقالات ولا غيرها من مخلفات التراث، بل مع ابداع وابتكار وأصالة وشخصية تتضح فى الأسلوب كما تتضح فى طريقة القصة وغايته جميعاً (طه بدر، ١٩٦٣: ١٧٨).

أعمال المنفلوطى القصصية من حيث مصدرها نوعان؛ نوع أساس فكرته وأهم أحداثه من أصل أجنبى، ونوع أساس فكرته وأحداثه مخترع. أما النوع الأول فيتمثل فى روايته

التي ترجمت له أحداثها والتي معظمها من النوع الذي يطلق عليه اسم "رومانس". وقد أعاد المنفلوطي كتابتها بطريقته وأسلوبه، متصرفاً بالحذف والزيادة والتعديل، حتى جعلها عملاً جديداً أو كالجديد.

وتلك الروايات هي «الفضيلة» التي أساسها «بول وفرجينى» لبرناردين دى سان بيير، و«مجدولين» التي أصلها «تحت ظلال اليزفون»، و«لأفونس كار»، و«الشاعر» التي مردها إلى «سيرانودى برجراك» لأدمون روستان، و«فى سبيل التاج» التي أصلها مسرحية شعرية لفرانسوا كوييه وقد قدمها المنفلوطي من جديد فى شكل روائى، محولاً شعرها وحوارها إلى سرد نثرى خاضع لأسلوبه البياني الخاص.

ومن هذا النوع الاول - المعتمد على أصول أجنبيه - بعض تلك القصص القصيرة التي ضمنها نظراته وعبراته، و هي فى الأصل روايات أجنبية حفظ المنفلوطي فكرتها وتصرف فيها بأسلوبه الخاص، مثل «الذكرى» التي أصلها «آخر ملوك بنى سراج» لشاتوبريان و«الشهداء» التي أصلها «أتالا» للكاتب الفرنسى نفسه، ومثل «الضحية» التي أصلها «غادة الكاميليا» لأكسندر دوما الإين (شوكت، ١٩٦٣: ٨٠).

برغم عدم إكمال قصص المنفلوطي القصيرة من الناحية الفنية، فإنه يعتبر المحاولات الأولى لهذا الفن فى الأدب المصرى الحديث (ضيف، لاتا: ٢٣٠). برغم تصرفه فى الروايات ذات الأصول الأجنبية، و برغم طريقته غير الدقيقة فى الكتابة القصصية بعامة، واعتماده على الإسترسال الإنشائي والإنفعال العاطفى الحزين، والبعد عن التحليل والتدقيق فى رسم الشخصيات (شوكت، ١٩٦٣: ٨١) فإنه يعتبر دعامة من دعامات الفن القصصى فى الأدب المصرى؛ فهو أول من صنع جمهوراً كبيراً للفن القصصى. وحمل القراء على اعتبار القصص والروايات نماذج أدبية عالية، لا تقل روعة عن الشعر. وبهذا يعتبر المنفلوطي مرحلة هامة فى تاريخ أدب مصر الحديث بعامة، وفى تاريخ فنها القصصى بصفة خاصة (طه بدر، ١٩٦٣: ١٨٠). ومن ناحية الموضوع فقد أختار الحياة الاجتماعية لبيئته واتخذها ينبوعاً لأفكاره وتحول فيها بتأثير أستاذه محمد عبده إلى مصلح اجتماعى فهو يردد آراء المصلحين من حوله ويؤديها بلغته التي تؤسر السامع وتخلب لبه، والنظرات يتحدث عن عيوب المجتمع وما يشعر به من مساوئ الأخلاق مثل القمار والرقص والخمر وسقوط الفتيات والفتيان فالمدينة الغربية عنده قد أفسدت الشباب إذ فتحت أمامهم أبواب

الملاهى والسخائف وحولتهم عن حياة الجد والحشمة والوقار فهو لذلك يحمل عليها بعنف، ويدعو إلى الحياة الكريمة ويكتب فى الغنى والفقر ويدعو إلى الإحسان والبر بالضعيف العاجز ويصور أكواخ الفقراء وما هم فيه من مهانة وذلة ونحن لا ننكر أن المنفلوطى لم يكن (هيكل، ١٩٦٨: ١١٦).

من فلاسفة المجتمع البشرى ذوى الإطلاع الواسع على شتى مناحيه وعلى العوامل التى تعمل على تطويره وترقيه، ومن الغلو أن نضعه فى مصاف الكتاب العالميين الذين تعمقوا فى دراسة الطبائع البشرية والمشاكل العمرانية والأحداث التاريخية على أن كل ذلك لا يمنعنا من أن نصفه بالكاتب المجيد فقد نشأ فى بيئة خاصة، ورأى فيها ما أثار فى نفسه الحزن والألم وحب الإصلاح فاستطاع أن يعبر عن شعوره بأسلوب أدبى ناصع استهوى الجمهور فأقبلوا عليه وتمتعوا بقراءة ما كان يقدم لهم. ومن المقالات التى يتجلى فيها خصائص أسلوبه وتفكيره:

«ليتك تبكى كلما وقع نظرك على محزون أو مفؤود فتبتسم سرورا بكائك واغتباطا بدموعك لأن الدموع التى تنحدر على خديك فى مثل هذا الموقف إنما هى سطور من نور تسجل لك فى صحيفتك البيضاء. أنك إنسان إن السماء تبكى بدموع الغمام، ويخفق قلبها بلمعان البرق وتصرخ بهدير الرعد، وإن الأرض تنئن بحفيف الريح وتضج بأمواج البحر وما بكاء السماء ولا أنين الأرض إلا رحمة بالإنسان ونحن أبناء الطبيعة فلنجارها فى بكائها وأنينها.

إن اليد التى تصون الدموع أفضل من اليد التى تريق الدماء التى تشرح الصدور أشرف من التى تبقر البطون ... وكم بين من يحيى الميت ومن يميت الحي؟ إن الرحمة كلمة صغيرة ولكن ما بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس فى منظرها والشمس فى حقيقتها. وإذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالته من القلب الرحيم وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناء. لو تراحم الناس لما كان بينهم جائع ولا عار ولا مغبون ولا مهضوم.

ولأقفر الجفون من المدامع ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام. أيها الإنسان! إرحم الأرملة التى مات عنها زوجها ولم يترك لها غير صبية صغار ودموع غزار، أرحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتؤثر الموت على الحياة، وارحم المرأة الساقطة فلا تشتت منها عرضها عليها تعجز عن أن تجد مساوما يساومها فيه فتعود به سالماً إلى كسر بيتها، إرحم الزوجة أم ولدك وقعيدة بيتك ومراة نفسك وخادمة فراشك لأنها ضعيفة ولأن الله أو كل أمرها

إليك، وما كان لك أن تكذب ثقته بك، إرحم ولدك وأحسن القيام على جسمه ونفسه فإنك ألا تفعل قتلته أو أشقيته فكنت أظلم الظالمين، إرحم الجاهل فلا تتحين الفرصة لعجزه عن الإنتصاف لنفسه فتجمع عليه بين الجهل والظلم، إرحم الجاهل لا تتحين فرصة عجزه عن الإنتصاف لنفسه، فتجمع عليه بين الجهل والظلم، ولا تتخذ عقله متجراً تريح فيه ليكون من الخاسرين. إرحم الحيوان لأنه يحس كما تحس ويتألم كما تتألم ويكي بغير دموع، وبتوجع ولا يكاد يبين. أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(المنفلوطي، ١٤٢٠ق، ج ١: ٦٩).

يتضح لنا من هذا المقال أن المنفلوطي كان شديد الإحساس بما في المجتمع من انحرافات وسقطات وفقدان الرحمة والتكافل، وتعالى الإنسان عن العدل والرحمة حتى مع الزوجة والولد، بل هو لا ينسى الرحمة بالساقطة التي هي ضحية المجتمع الظالم، ولا بالجاهل، ولا بالحيوان. كما يمكن أن نتبين الميل القوي للوعظ عند المنفلوطي واستخدام بعض الخصائص الخطابية كالإهتمام بأسلوب النداء والتكرار وتأکید المعاني بأكثر من صورة. أما قدرته البيانية فيأتي في مقدمتها اختياره الدقيق للألفاظ الصافية السهلة ذات الإيقاع القوي، ونظمه لهذه الألفاظ في عبارات متوازنة تحدث نغماً متسقاً في كل أجزاء المقال، ويأتي السجع نادراً وبصورة عفوية(هدارة، ١٩٩٤م: ٤٠٤-٤٠٣).

نظرته الاجتماعية

كان المنفلوطي يهتم بالقضايا الاجتماعية ويبدو أن اهتمامه بالقضايا الاجتماعية كان نابعاً من اتجاه أستاذه الإمام محمد عبده الذي كان يريد إصلاح المجتمع، لذا كان المنفلوطي دائم الإلحاح على كشف العيوب الاجتماعية والمناداة بالخلاص منها باسم الفضيلة والشرف؛ ففي مقالات مختلفة كتب عن القمار والرقص والخمر والسقوط الفتيان والفتيات في مهاوى الرذيلة، وتوجع الفقراء والبؤساء داعياً الأغنياء إلى البر والعطف والرحمة(نفس المصدر: ٤٠٤).

كان المنفلوطي يدعو الناس إلى مساعدة الفقراء والبائسين ويعتقد أن بطنه الغنى نتيجة اختلاسه من الفقير، فعاقبه الله على قسوته بالبطنه.

كان المنفلوطي يعتقد بأن الخير هبة الحياة للناس جميعاً وهو حق مشترك بينهم ولا يستطيع أحد أن يمنع عن الآخرين كما فعل الأغنياء. إنه يعتقد أن الحد الفاصل بين

الإنسان والحيوان، هو صفة الإحسان. الذى يقرأ ادب المنفلوطى يرى أن قضية احقاق العدالة الاجتماعية شريان دائم التدفق فى آثاره.

إن المنفلوطى لا يصور العيوب الاجتماعية فقط ولا يكتفى بالموعظة والإرشاد، بل يقدم اقتراحاً عملياً على سبيل المثال تنظيم الإحسان عن طريق إنشاء مؤسسة تسمى مجتمع الإحسان (المنفلوطى، ١٩٢٠ق، ج ١: ٧٣).

ان المنفلوطى معلم اخلاق وداعية فضيلة ويدافع عنها ويدعو إليها، وفى مقالاته وقصصه يهتم بقضية الأخلاق، ويدعو إلى الرحمة والصدق والشرف ويعتقد لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم الشرفاء ويدعو إلى الإنصاف والإحسان والوفاء والكرم. هو يحث القارئ على إلزام الفضيلة لذاتها مهما كان الثمن غالياً.

ومن يطالع متن مؤلفاته، يلمس مكنونات المجتمع الذى عاش فيه لطفى المنفلوطى حيث أنه قد رسم من خلال مجتمعه ما كان يعانيه هذا الأخير من مشكلات انقسم فى العديد من قضايا المجتمع بين مؤيد ورافض، كمسألة الحجاب، ومسألة محاكاة المتفرنجين وغيرها، كما وعبر من خلال قصصه هذه كما عاش فى ذلك الوقت فى نفوس الشباب من أشواق وأحزان وآلام؛ وهكذا جاءت قصصه قطرات من الدفع سكبها المنفلوطى بين أيدي القراء.

نتائج البحث

مصطفى لطفى منفلوطى كان صحيح الفهم، سليم الفكر ودقيق الحسنى فى ظاهره كقطعة موسيقية وباطنه فهو مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متنسق الاسلوب ومنسجم الزى. هو إنسانى النزعة إلى حد بعيد وقد وضحت لنا فى بعض المواقف، نزعتة الإنسانية العامة حيث يأسى من أجل شقاء المجتمعات بالحرب ويدعو للسلام ويعتز بالصلة الانسانية بين بنى البشر جميعاً.

كان أسلوب المنفلوطى حديثاً بالنسبة لمن سبق بوجه عام إذا ابتعد عن الإنشاء اللفظى والزخرف البيانى على غير مضمون. من يقرأ مؤلفات مصطفى لطفى المنفلوطى يرى فى أسلوبه وضوح، رشاقة وسهولة. تتصف كتابة المنفلوطى بالإطناب، فهو عندما يصف شيئاً أو يشرح أمراً يدقق فيه ويتعمق ولا يدع جزء منه ألا يعطى وصفاً دقيقاً عنه.

كان المنفلوطى يهتم بالقضايا الاجتماعية ويبدو أن اهتمامه بالقضايا الاجتماعية كان نابعا من اتجاه أستاذه الإمام محمد عبده الذى كان يريد إصلاح المجتمع، ولذا كان المنفلوطى دائم الإلحاح على كشف العيوب الاجتماعية والمناداة بالخلاص منها باسم الفضيلة والشرف.

المصادر والمراجع

- أبو الأنوار، محمد. ١٩٨١م، مصطفى لطفى منفلوطى؛ حياته وأفكاره وآراؤه وأدبه، القاهرة: مكتبة الشباب.
- أبو الأنوار، محمد. ٢٠٠٠م، المنفلوطى؛ إمام البيان العربى، لبنان: الدار المصرية.
- رضايى، رمضان. ١٣٨٤ش، اشكها، طهران: كلبه معرفت.
- الزيات، أحمد حسن. ١٩٨٥م، تاريخ الأدب العربى، بيروت: دار المعرفة.
- شوقى، أحمد. ١٩٨٨م، الشوقيات، الطبعة الرابعة، بيروت: دار العودة.
- شوكت، محمود. ١٩٦٣م، الفن القصصى فى الأدب المصرى الحديث، دار الفكر العربى.
- ضيف، شوقى. لا تا، الأدب العربى المعاصر فى مصر، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار المعارف.
- طه بدر، عبدالمحسن. ١٩٦٣م، تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر، الطبعة الثالثة، مصر: دار المعارف.
- عبدالقادر، أحمد حامد. ١٩٤٩م، دراسات فى علم النفس الأدبى، مصر: دار المعارف.
- عويضة، الشيخ كامل محمد محمد. ١٩٩٣م، المنفلوطى؛ حياته وأدبه، بيروت: دار الكتب العلمية.
- المقدسى، أنيس. ١٩٩٠م، الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين.
- المقدسى، أنيس. ١٩٨٤م، الإتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث، الطبعة الثامنة، بيروت: دار العلم للملايين.
- مكى، الطاهر أحمد. ١٩٨٧م، الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه، مصر: دار العالم العربى.
- المنفلوطى، مصطفى لطفى. ١٤٢٠م، النظرات، بيروت: دار الكتب العلمية.
- هدارة، مصطفى. ١٩٩٤م، بحوث فى الأدب العربى الحديث، بيروت: دار النهضة العربية.
- هيكل، احمد. ١٩٦٨م، تطور الأدب الحديث فى مصر، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار المعارف.